ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّى رسوله ﷺ حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك ؛ لأن هؤلاء لن يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد فى سبيلها والجهر بها ؛ لأننى أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسلْمه .

وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قسراً لا يملكون أنْ يكفروا : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

إنما أريد أنْ يأتونى طواعية عن محبة ، لا عن قهر ؛ لأننى لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أىُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ الناسَ تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتى من قوة أنْ يُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .

وهنا يقول تعالى لنبيه : ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ.. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] فجعلهم فى حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزَقون ، لماذا ؟ لأن الذى لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .

أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التى يستوى فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه

للمؤمن خاصة ، والتى يقول الله فيها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهى الحياة التى تُورِثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .

لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

لذلك سمَّى الله المنهج الذى أنزله على رسوله روحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوى ولا تزول .

وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] فالمنهج روح من الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه فى الناس جميعاً ، فَيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التى يستوى فيها جميع البشر ، لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقى أو بلطجى يفسد فى المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا ؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل فى النافع الدائم ، فلا معنى لها .

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء

القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ فى إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتى ممن أصغى سمعه ، وأعمل عقله فى الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً فى صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شيء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعى قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها ؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، مليء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعى هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لى هذا الكون ؟

ثم لم يدَّعِ أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذى جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة فى آية أخرى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..** (١٦) ﴾ [محمد] وهذا يعنى أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبِل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن

مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد ، ويصل إلى حَلِّ اللغز فى الكون وفى الخَلْق ؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التى أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضى على فسادهم وطغيانهم ؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، ألاَ تقرأ قول الحق سبحانه عن مقالتهم : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعِدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدرى ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعنى : وعى القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه ؛ لأن الله ختم على قلبه .

ومهمة الداعى أنْ يتعهد المدعو ، وألاَّ ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .

وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .

ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ،

فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلباً صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم[(١)] .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤْمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .

وحين نلحظ الفاء في بداية هذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. (٥٢)﴾ [الروم] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم ؛ لأنك ما قصرْتَ في البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل ؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التي جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : « خرج عمر متقلداً السيف ، فلقيه رجل ، فقال له : أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب إن ختنك وأختك قد صبَوا وتركا دينك الذي أنت عليه . فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب بحس عمر توارى في البيت ، فدخل عليهما ، فقال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟ لعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً . فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمَّى وجهها فقالت وهي غضبى : وإن كان الحق في غير دينك ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . وقد أدى هذا الموقف بعمر أن ذهب لرسول الله ﷺ في دار ابن أبي الأرقم ، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ، فهذا عمر ابن الخطاب : اللهم أعز الإسلام - أو الدين - بعمر بن الخطاب . فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وأسلم » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢١٩ ، ٢٢٠) .

ونَهْى بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لابُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] وفى موضع آخر : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] وقال أيضاً : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة]

وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتى نتيجة الصمم ؛ لأن اللسان يحكى ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شيء يحكيه .

لذلك نجد الطفل العربى مثلاً حين ينشأ فى بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها ، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا ؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربى عن العجوز : أنها الحَيْزبون والدَّردبيس[1] .. الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربى لكن لم تسمعه أذنك .

والأذن هى أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم فى حكم الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطىء فى

---

(١) الحيزبون : العجوز . والنون زائدة ، كما زيدت فى الزيتون . [اللسان - مادة حزب] .
- الدردبيس : الشيخ الكبير الهِمّ (البالى) الفانى ، والعجوز أيضاً يقال لها دردبيس [اللسان مادة : دردب ، دربس] .

شيء ، فتقول له : أنت أعمى ؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملهما في مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً في حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يروْنَ آيات الإعجاز في الكون ، وليتهم صُمٌّ فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك ، لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] يعني : أعطوْكَ ظهورهم ، إذن : لم يَعُدْ لهم منفذ للتلقي ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ في مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر في العمى (فلان لا يعطي العمى حقَّه) يعني : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِن تُسْمِعُ .. (٥٣) ﴾ [الروم] أي : ما تُسمع ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ [الروم] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوِّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَن اخترع أبسط الأشياء في

حياتنا ونؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا نعرف أديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى ، والله الذى خلق الشمس لَهُوَ أوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذى تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدِّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به ؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس فى أعقاب البلاغ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩)﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن العمل الذى يُؤدِّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم ؛ لأن عملهم غالٍ لا يُقدِّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفِّيهم أجورهم .

ومعنى ﴿يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا .. (٥٣)﴾ [الروم] يعنى : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما فى الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به ؛ لذلك قال بعدها : ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾

الحق - تبارك وتعالى - بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة فى الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْفِ الآيات فى الكون من حولك ، فانظر فى آيات نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وفى

أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] وجمع بين النوعين في قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهنا يقول : تأمل فى نفسك أنت : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التى خُلقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها فى نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها فى غيرك ، شاهدتها فى الماء المهين الذى يتكوَّن منه الجنين ، وفى الأم الحامل ، وفى المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبى بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التى أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا فى ذاته ، لكن فى غيره ، وفى مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال فى مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ فى النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشى ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق - سبحانه وتعالى - وينبغى أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة الشباب هذه فى العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هى بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدى مهمتها التى خلقها الله من أجلها .

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه

طفل ، ينبغي علينا أن نلبي كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ نرضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما في خارج بلادنا ، فبمجرد أن يبلغ الشاب رُشْده لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا في تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية في هذه السِّنّ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [النور]

فانظر أنت أيها الإنسان الذي جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك في خدمتك ، انظر في نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شيء يخدمك غيرك.

ومن حكمته تعالى في الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذي أمه ، ثم تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية ؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ في نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] أي : قوة الشباب وفتوته ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] أي : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسري في كل الأعضاء ، حتى في العلم ، وفي الذاكرة ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥) ﴾ [الحج]

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل في كل شيء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقوِّيك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع

عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة ؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتامينات) فى سنِّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة فى الأداء فى قول سيدنا زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت فى جسمك.

فمعنى قول سيدنا زكريا : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] يعنى : وصلتُ إلى مرحلة الحرض[1] التى لا أملَ معها فى قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لوناً ، إنما البياض انعدام اللون ؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف بـ « السوالف » من هنا ومن هنا ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيماوية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضى عليها ؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً فى المترفين خاصة ؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب فى هذه المناطق من الرأس .

---

(١) الحرض : الساقط الذى لا يقدر على النهوض . [اللسان مادة : حرض] .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولاً ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] ثم ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] ومع كبر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له في طلبه للولد الذي يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف ؟ لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .. ⑤④﴾ [الروم]

وقال في شأن زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ⑤④﴾ [الروم] أي : أن هذا الخَلْق ناشيء عن علم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ①④﴾ [الملك] لكن العلم وحده لا يكفي ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسي على الموجد الحق الفاعل المختار الذي يفعل الأشياء بعلم وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً ؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدري بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة لتحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التى شاركت فى حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشىء كن فيكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) ﴾

بعد أنْ عرض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل ليهتدى به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التهديد : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ** .. (٥٥) ﴾ [الروم] معنى كلمة ﴿ **تَقُومُ السَّاعَةُ** .. (٥٥) ﴾ [الروم] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته ؛ لأن الساعة أمر لا يتأتَّى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله ﴿ **تَقُومُ** .. (٥٥) ﴾ [الروم] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهى من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة ﴿ **تَقُومُ** .. (٥٥) ﴾ [الروم] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدى مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ،

ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعنى : أنها جاءت لتؤدى مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة ؛ لأنها دالة على الوقت الذى يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة لحساب الزمن نقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالى ، توقيت كذا أو كذا .

هذه الآلة التى فى أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيِّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدة ثوانٍ أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنعتْ فى سويسرا ، أو فى الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التى لا ساعةَ بعدها ، واعلم أنها منضبطة عند الحق سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فإنْ كذبوا فى الدنيا ، فهل يكذْبون أيضاً فى الآخرة ؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم فى هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولم يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] فقد كانوا يقلبون الحقائق فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذى خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّى الفعل جريمة .

ومعنى ﴿مَا لَبِثُوا .. (٥٥)﴾ [الروم] اللبث : المكْث طويلاً أى فى الدنيا ، أو : ما لبثوا فى قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التى تميت إلى النفخة التى تُحيى .

فهذه فترات ثلاث للبثهم فى القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين . وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

وهؤلاء يقولون يوم القيامة « ما لبثنا غير ساعة » مع أن الآخرة لا كذبَ فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم ؛ لأن الغائب عن الزمن لا يدرى به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن ؛ لأن الزمن يُحسب بتوالى الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالى لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذى أماته الله مائة عام ثم بعثه[1] .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوقِّتوا إلا على عادة الناس فى النوم ، فقالوا : ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف] ؛ لأنه فى هذه الحالة لا يدرى بالزمن ، إنما يدرى بالزمن الذى يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان فى هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون]

(١) هو : العُزَيْر . حكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى . وهذا هو القول المشهور . وقال سلمان بن بريدة : هو حزقيل بن بوار . قال ابن كثير : « أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها » [تفسير ابن كثير ١/٣١٤] .

أى : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود الملائكة[1] ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها منذ خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشيء الذى لا يكون مظنة العدِّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد فى الدنيا رمال الصحراء مثلاً ؟ لذلك نسمع فى الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف فى السماء كم نجم ؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة ؟ وفى موضع آخر يقول عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات]

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذى يجمعك ومَنْ تحب يمضى سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذى تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدِّ قول الشاعر :

حَادثَاتُ السُّرور تُوزَنُ وَزْناً ... والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفْزان[2]

ويقول آخر :

وَدَّع الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ ... ذائعٌ من سرِّه مَا اسْتوْدعَكْ

---

(١) قاله مجاهد . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٢٢) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) القفزان جمع : قفيز . وهو مكيال تتواضع الناس عليه . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : قفز] : « هو ثمانية مكاكيك عند أهل العراق . والمكُّوك : ثلاث كيلات » أى : أن القفيز الواحد : ٢٤ كيلة . أى : ٢٨٨ كيلوجرام .

يَقْرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكُنْ زَادَ فى تلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

إلى أنْ يقولَ :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلى فلكَمْ بتُّ أشكُو قصرَ الليْلِ معكْ

ففى أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفى أوقات الغمِّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذى يقول ـ لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ يَا صبْحُ قفْ لاَ تطْلُعِ

كذلك الذى ينتظر سروراً يستبطىء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذى ينتظره ، أما الذى يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذى يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن ؛ لأنهم واثقون من الخير الذى ينتظرهم والنعيم الذى وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعدهم عما ينتظرهم من العذاب ؛ لذلك يقولون ما لبثنا فى الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .

إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدرى بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿ **قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام ﴿ **قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ** .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

والذى لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً فى حكمه على الزمن ؛ لذلك أقام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل على صدْق القولين فقال : ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ**

لَمْ يَتَسَنَّهْ .. ﴿٢٥٩﴾ [البقرة] والطعام لا يتغير فى يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صدْق الرجل .

ثم قال سبحانه ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]

فقامت العظام البالية دليلاً على صدْقه تعالى فى المائة عام . ولا تقل : كيف نجمع بين صدق القولين ؟ لأن الذى أجرى هذه المسألة رب ، هو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حَقٍّ آخرين .

وهذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله ، ومعنى إعذارهم أى : إسقاط عذرهم فى أنه سبحانه لم يُبيِّن لهم أدلة الإيمان فى قمته بإله واحد ، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام فى : افعل ، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث : آيات تثبت قمة العقيدة ، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم ، وآيات تثبت صدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله ، وهذه هى المعجزات ، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه فى : افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلِّغ عن الله بواسطة المعجزة ، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلِّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله ، ووجود الله ثابت فى آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته فى الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبّها علينا صبّاً ، إنما يأتى بالآية ثم يُردفها

بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتى بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم فى أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر فى ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْد معهم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]

ثم يسوق آية أخرى :

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم]

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ [الروم]

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتى هذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هى القيامة .

وعجيب أنْ يُقسموا بالله فى الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه فى الدنيا .

وفى الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : من الوقت . ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أسِيرُ   وقَلْبى فِى محبتِكُمْ أسِيرُ

أى : مأسور

ولى أنا وزميلى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة ـ أطال الله بقاءه ـ قصة مع الجناس ، ففى إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد فى القرآن جناس تام إلا فى هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : فى القرآن شىء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول ؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان فى عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شىء فالجناس بينهما ناقص ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص ؛ لأنهما اختلفا فى الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إلىَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك ؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعنى : تتفق الكلمتان فى كل الحروف أو فى بعضها ، وبذلك لا نقول فى القرآن : جناس ناقص .

فقولهم ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : الساعة الزمنية التى نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم فى الدنيا أو فى القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم فى سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدِّقوا والآن يقولون : إنها كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

ففى الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعى الإيمان ، أما الآن فى الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أى : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شيء محبوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : كهذا الكذب ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] والإفك من أفك إفكاً . أى : صرف الشيء عن وجهه ؛ لذلك سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجِدها وهى غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله ﴿كَذَلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعنى : يكذِّبون الرسل فى الحقائق التى جاءوا بها من قِبَل ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قال هنا ﴿ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم] فهل العلم ينافى الإيمان ؟ لا ، لكن هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شيء أنت تراه وتعلمه ، وشيء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان ؛ لذلك دائماً يُقَال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .

وقد أوضحنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

فقال : ألم تَرَ مع أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يتسَنّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .

فقوله : ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة .... الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر ، لذلك النبى ﷺ لما سأل الصحابى[1] : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : « لكلّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) وعزا الحديث لابن المبارك فى الزهد .